للمكان الفلاني (يريد مكان الاسد . وكان تمويهُ بالدبّ عن الاسد غروراً بزين الدين وطمعاً ان يحدث لهُ الاسد حادثاً) . فوجّه زين الدين ليلاً الى المكان ولم يصحب معهُ احداً ومعهُ قوسهُ . فاكمن في المكان الذي قيل لهُ عنهُ . فلمّا مرَّ بهِ الاسد علم انهُ مغرور بالقول الذي قيل لهُ ورمى الاسد بسهم واحد معتمداً على بيت القلب فمات الاسد منهُ . وعاد زين الدين الى منزلهِ . وعند الصبح (٣٧) ارسل الى من اخبرهُ انهُ دبٌّ . يقول لهُ : اذهب وائتِ بالدبّ الذي قلتَ عنهُ فانهُ مقتول بالمكان الذي ذكرتهُ . قال ذلك متهكماً . وتزوّج زين الدين المذكور صادقة بنت نجم الدين محمّد بن حجي بن كرامة ابن مجتر(١ وسنة وفاتهِ نقلاً عن خطّ ناصر الدين الحسين نهار الخميس ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٦ م)

(واسماء اولادهِ) ناهض الدين مُجتر وشرف الدين عليّ وبدر الدين يوسف . اما (عمائرهُ) فاوّل ما عمّر الحارة التي عند العين بعرامون وهي اوّل العمائر العالية الحسنة ولم يُبنَ في الغرب بيوت احسن منها . عمّرها قبل فتوح بيروت . ثم عمّر القاعة والحمّام في البستان وبعد ذلك شرع في العمارة براس عرامون ابتدأ ان يعمّرها كقلعة وجعلها اقبية ونقر البئر في الصخر فلم تكمل حتّى توفّي ثمّ جعلوها مساكن عمّرها الله بوجود اهلها (ستاتي البقية)

السفر العجب الى بلاد الذهب *

للاب اميل ريفر اليسوعي

الفصل الاوّل

فاضل

مساء الخير يا فاضل

— اسعد الله مساءك يا يوسف

١) توفيت صادقة زوجة زين الدين بن عليّ المذكور وهي امّ اولادهِ جميعهم نهار الخميس سادس وعشرين صفر سنة ثلاث وسبعمائة (١٣٠٣) . وصادقة المذكورة اخت زوجة سيف الدين غلاب وهي امّ علم الدين الرطوني

* قد عرّبت هذه القصّة بقلم جناب المعلّم رشيد افندي الشرتوني

— كيف حال صحتك ؟

— بخير كما ترى

— نشكر الله

— لقد أتيتَ لتصرف معنا الظهيرة فاهلًا بك وسهلًا . تفضَّل واجلس

فجلس يوسف على الحصيرة وخرج فاضل حتى ينبِّه والدته لكي تهيِّئ القهوة

وكان فاضل شابًّا حسن المنظر له شاربان حالكان مع حاجبين كأنهما القوس وعُنق مستقيم وكتفين عريضتين وساعدين مفتولين وساقين قويتين ولم يكن يجهل القراءة والكتابة والحساب وقد تعلَّم اللغة الافرنسية وشيئًا من الانكليزية وكان اهل قريته ينعتونهُ بالعالم . ومع انهُ لم يكن ذا عقل فريد فقد كان من ذوي الخبرة في الاشغال ولا جرم ان هذه الصفة قد ورثها السوريُّون عن اجدادهم الفينيقيين . ومع كلّ هذا فقد كان شديد التحمُّس في الديانة ممارسًا لمقتضياتها فلم يتأخر طول عمره عن حضور القدَّاس أيام الآحاد ولا أهمل الاعتراف والتناول في الاعياد الكبرى من السنة . وقد ربَّتهُ والدتهُ مريم تربيةً حسنةً مسيحية فكان يحبها ويقدِّم لها غاية الاكرام

وقد ضمَّ فاضل المذكور الى هذه الصفات كلها صفةً يعتبرها اهل الدنيا اعظم الاشياء وانفسها فقد كان معدودًا عندهم انهُ ورث عن المرحوم والده غنًى عظيمًا وكانوا يتحدَّثون بذلك فيما بينهم مع ان ظواهر فاضل لم تكن لتدلّ على شيء مما ذهبت اليهِ اوهامهم . والحقيقة انهُ لم يكن ذا ثروة طائلة بل انهُ كان ميسور الحال ينفق عن سَعَة ومن ايسرت حالهُ وقنع بما عندهُ يعيش لسر الحق عيشةً راضية فلا يرهب تقلبات الدهر ويكون بمنجاة من المعايب والرذائل التي تتولَّد عن الميل المتطرِّف الى حشد الدرهم

وكان فاضل يفكِّر في هذه الامور كلها بينما كان يهيِّئ نارجيلته لاجل التدخين بها . فبعد ان بلَّ التنباك وعصرهُ وفركهُ بين راحتيهِ وضعهُ على رأس ذي نقوش ثم تناول ملقطًا واتخذ من كانون امامهُ اربع جمرات صغيرة ووضعها على رأس النارجيلة واخذ يشرب . وغب ان جذب بضعة أنفاس جلس الى جنب يوسف فتدم لهُ طرف النرجيل الطويل وكان قد لواهُ عدَّة لفَّات على القلب فقال :

كيف حالك ؟

— بخير والحمد لله .

— صحتك جيدة ؟

— تحت انظارك

ولم يعد يُسمع بعد ذلك سوى بتبقة النارجيلة التي كان دخانها الضارب الى الزرقة يتصاعد الى الجوّ

اما الحجرة التي جلس فيها فاضل ويوسف فلم تكن بالكبيرة ولا الصغيرة وكان سقفها من جسور الحور التي علاها الاسوداد قليلًا وفي جدرانها المبيَّضة ثلاثة شبابيك مطلَّة على حقل من التوت وتجاويف مصنوعة لاجل تنضيد الفرشات والمساند واما أرضها فمن الحجر الصوّانيّة . وكانت الحجرة المذكورة أحسن غرف البيت فكانوا يستعملونها احيانًا للرقاد واحيانًا يمدّون فيها سُفرة الاكل وارقاتًا يستقبلون فيها الزائرين وفي مساء هذا النهار اختاروها لقضاء السهرة لان اوائل برد الخريف اجبرتهم ان يعدلوا عن الجلوس على السطح حيث كانوا يتسامرون عادة في أيام الصيف ويتأملون الرقيع المزيّن بالنجوم وينظرون الى القمر وضيائه الساطع . وبينما هم كذلك اذا بيوسف ترنح قليلًا من مكانه فقال:

هذا مارون آتٍ — ثم دخل مارون يتبعهُ رزق الله وابرهيم وعبد الله وجبرائيل

— مساء الخير

— سعدتم مساء

— كيف حال صحتكم ؟

— جيدة بحمد الله

— الشكر للمولى

واذ ذاك التفت فاضل على الارض طرف التريبج وذهب ليأتي بنارجيلات أخرى لزائريه وبينما كان مهتمًّا بتهيئتها دخلت والدته وبين يديها صينيَّة عليها فناجين القهوة . وكانت امرأة فاضلة تبلغ من السنّ نحو الخمسين سنة وازيد وقد فجعت بزوجها في مقتبل شبابه فاقبلت وقد صارت وحدها على تربية ولدها فاضل المذكور وشقيقته ولم يكن لها من الاولاد غيرهما . وكانت تحبّ فاضل محبة عظيمة ولا تطيق ان يغيب عنها دقيقة واحدة ولهذا كانت تقلق وتضطرب كلّما ذهب الى احدى القرى القريبة ويزيد اضطرابها اذا اتفق له النزول الى بيروت

فلمَّا دخلت وقف الجميع فسلَّموا عليها واضعين ايديهم على صدورهم كما هي العادة .

فحيتهم بمثل تحيتهم ثم قدّمت الى كل منهم فنجانًا من القهوة وانتظرت حتى يفرغوا من شربه

وبينما كانوا يتناولون القهوة ببطء وهم يتحدثون عن امور عديدة بجمل متقطعة اخبرهم يوسف ان موسى وردهُ مبلغ عظيم من الدراهم من ولد لهُ مسافر الى اميركة. فما سمع الحاضرون لفظة دراهم حتى شخصت منهم الاحداق واشرأبّت الاعناق وكاد ابرهيم ان يكبّ القهوة من فنجانه الذي كان قد تناول نصفه. ثم ان عبدالله اكّد لهم الخبر وزاد جبرائيل انهُ التقى بموسى المذكور وكان مُشرق الوجه فرأى معهُ من بعيد قطعة من ورق ابيض ولما دنا منهُ رأى في تلك القطعة حروفًا اجنبية غير انهُ لا هو ولا موسى تمكنّا من قراءتها

واذ ذاك مال الحديث ميلهُ بالمجتمعين في بيت فاضل واندفعوا في الكلام اندفاعًا واخذوا يتحدثون عن هذه البلاد الاميركية البعيدة التي ترزق قاصديها الغنى وتخوّلهم القناطير من الذهب. ولكن لم يكن احد منهم ليعرف موقعها بل غاية ما يعلمون ان قاصدها يصير غنيًا وينسون ان المهاجرين اليها كثيرًا ما يخسرون اموالهم بل كثيرًا ما يفقدون كنوزًا اثمن من الصحّة والمال

وكان فاضل قد هاجت الرغبة في قلبهِ للسفر الى حيث سافر الآخرون من قريتهِ. وكان يقول في نفسهِ: انهم ليسوا باحذق مني وقد اصابوا نجاحًا. فلماذا لا انجح انا ايضًا؟

واعلم ان فاضل مع ما كان متزيّنًا بهِ من الخلال الحسنة قد كان فيهِ عيب من اكبر المعايب وهو انهُ يحبّ المال الى حد الافراط. ولم يكن هذا الشاب ليتنبه الى هذا الامر حق الانتباه بل كان يسميّه اقتصادًا وحذرًا ويقول: ان الانسان لا ينبغي لهُ ان يكون مبذرًا. الى غير ذلك من الاقوال الدالة على حرصهِ الشديد

فلما جرى بحضوره حديث اميركة وذهبها تأجج الشوق في فؤاده وودّ لو يكون لهُ جناحان حتى يطير اليها. وبعد ان كان قبلًا يرى نفسهُ في سعادة وغبطة اصبح يشاهد منزلهُ حقيرًا ويحدّث نفسهُ انهُ اذا ذهب الى اميركة يعود منها ويبني بيتًا كبيرًا مسقوفًا بالقرميد كبيت جاره بطرس ايوب. وصارت تتخيّل لمخيلتهِ أسباب كثيرة تحثهُ على الرحيل منها انّ تربية دود القزّ أصبحت لا توفي بتعبها وان الحرير ولا سيما السوري قلّت اثمانه وتصعّب مبيعه في اوربة

وكان فاضل كما سبق الكلام نائلاً من الثروة ما يزيد على الكفاية حتى انهُ كان يُحسب غنيًا ما بين اهالي قريتهِ الذين هم جميعًا من الفقراء . ولكن متى احبَّ الانسان شيئًا يرى كلَّ الاسباب المؤدية اليهِ حسنةً . وبينما كانت كلّ افكارهِ متَّجهةً الى اميركة وأصبح ولا همَّ لهُ سوى السفر اليها واجتناء ذهبها اذ فُتح الباب بغتةً دون تنبيهٍ سابق ودخل موسى وفي يدهِ ورقة فقال : « أتعرف بقراءة . انظر ما ارسلهُ اليَّ ولدي من سان فرنسيسكو » وحينئذٍ قام الجميع وقوفًا وازدحموا حولهُ واخذوا ينظرون في الورقة ويلمسونها بايديهم . فصاح بهم قائلاً : انها بقيمة خمسمائة فرنك وتسمَّى في عرف التجَّار « شك » فالي الا ان اذهب الى بيروت وأقدّمها للبنك فاقبض قيمتها على التمام والكمال أفهمتم ؟

قال هذا ووجههُ يتهلَّل فرحًا ويفيض جذلاً وبشرًا . فعطف الكل ابصارهم الى الورقة فما تمكن احد من قراءتها الَّا فاضل فانهُ قرأ في رأسها باحرف غليظة لفظتي « منة دولار » واما الباقي فكان مكتوبًا بالانكليزية . وحينئذٍ بلغ الاندهاش من الحاضرين اقصى مبالغهِ حتى انهم في ذلك المساء قصروا حديثهم على اميركة معدن الغنى ولمَّا تفرَّقوا من السهرة رقد فاضل وهو يفتكر بارض الذهب

فلمَّا طلع الصباح افاق فاضل متقطب الجبين وتناول ترويقتهُ التي جرت عادتهُ ان يتَّخذها كل يوم من الخبز والزيتون ثم خرج وهو مكتئب ومشغول الفكر . ولحظت ذلك منهُ والدتهُ مريم فعرفت دون صعوبة علَّة ابتئاسهِ واضطراب بالهِ . وكانت تحبّ من صميم قلبها ان يصير ولدها غنيًا ولكن من جهة لم تكن تطيق الصبر على فراقهِ ومن جهة أخرى ما كانت تستطيع ان تصحبهُ في سفر هكذا طويل حتى انها لو استطاعت لمانعها فاضل كلَّ الممانعة ومع ذلك فان وحيدها هذا كان مزمعًا ان يتعرَّض لاخطار كثيرة في اسفارهِ بالبحر وسلوكهِ ببلدان يجهلها

(ستأتي البقية)